



تمظهرات التناس في رحلة ابن جبير الأندلسي

Intertextuality Manifestation in the Journey of
Ibn Jubayr Al-Andalusi

رضوان غربي

مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها.

جامعة بسكرة (الجزائر)، radouan.gharbi@univ-biskra.dz

ملخص

عالجت هذه الورقة البحثية تقنية التناس وتجلياتها داخل النص الرحلي، باعتباره نصا سرديا لا يستغني فيه الرحالة عن توظيف هذه التقنية التي تعكس تجربته ورؤيته الفنية، حيث تطرقت إلى تحديد مفهوم التناس في النقد الغربي والنقد العربي الحديث، مع التعرض لمفهوم أدب الرحلة، وانصب التركيز في هذه الدراسة على إبراز مختلف الروافد الثقافية التي تفاعل معها الرحالة وضمها في نص رحلته، حيث اشتملت رحلته على مختلف أشكال التناس بما في ذلك التناس الديني والأدبي والتاريخي، الأمر الذي يعكس ثقافة الرحالة وتشبعه بالثقافة العربية الإسلامية العميقة، بالإضافة إلى تأثره بالثقافة الأدبية والتراثية التي تجلت في أسلوبه الفني الذي سلم من التكلف والتصنع بل ورد بشكل عفوي لاسيما في التفاعل مع المشاهد ورصد العادات والتقاليد التي استرعت انتباهه، فساهم ذلك في تبليغ المقاصد وإضفاء جمالية على النص الرحلي، ولاستجلاء مختلف التعالقات النصية اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي.

كلمات مفتاحية: التناس، الرحلة، الأدب، ابن جبير.

Summary

This research paper dealt with the intertextuality technique and its manifestations within the journey text, as it is a narrative text in

which travelers cannot do without employing this technique, reflecting his experience and artistic vision. It addressed the definition of the concept of intertextuality in Western criticism and modern Arab criticism, with exposure to the concept of travel literature. Where, the focus of this study was on highlighting the various cultural tributaries that the traveler interacted with and included in the text of his journey. In fact, his journey encompassed various forms of intertextuality, including those religious, literary, and historical, which reflects the traveler's culture and his saturation with the deep Arab-Islamic culture, in addition to his influence by the literary and heritage culture, which was evident in his artistic style, which was free from affectation and artificiality, but rather appeared spontaneously, especially in interacting with the viewer and monitoring the customs and traditions that caught his attention. This contributed to communicating the purposes and adding aesthetics to the travel text. To clarify the various textual relationships, I relied on the descriptive and analytical approach.

Keywords: Intertextuality, journey, literature, Ibn Jubair

1. مقدمة

يشكل التناص رؤية فنية وتقنية جمالية في الدرس اللساني والنقدي الحديث، حيث إنه شغل حيزاً كبيراً من الاهتمام في المجال النقدي ولا سيما أن كل نص أدبي ينتجه المبدع لا يكاد يخلو من هذه الظاهرة التي تفرض حضورها في النصوص الأدبية باختلاف توجهاتها ومضامينها، فكل نص أدبي لا يمكن أن ينشأ من العدم، إذ لابد أن يتقاطع ويتفاعل مع غيره من النصوص ليستفيد منها في تشكيل نفسه، فضلاً عن ذلك فالتناص يسهم بشكل كبير في تعميق المعاني وإثراء النصوص الأدبية بدلالات معرفية وفنية تعكس وتجسد رؤية المبدع وثقافته، وبخاصة أن النص الأدبي لا يكتمل بناؤه الفني إلا إذا تعالق وتقاطع مع غيره من الأفكار والنصوص التي تضيف بدورها جمالية على النص وتكون خادمة لرؤية الكاتب وقضاياها والتعبير عن قناعاته وتصوراتها.

ولما كان أدب الرحلة من الفنون الأدبية التي تساعد على الخروج من الانغلاق على الذات، والتطلع نحو أفق أوسع يسهم في خلق جسور التواصل المعرفي والحضاري بين

الشعوب والأمم وقع اختياري على رحلة ابن جبير الأندلسي التي قام بها في القرن السادس الهجري إلى بلاد المشرق، فكانت رحلته مصدرا للباحثين في مجال الأدب والتاريخ والحضارة العربية، وجدير بالذكر القول أن النص الرحلي سجل حافل بمختلف المعارف والعلوم التي تشابك فيما بينها لتشكل لنا نصا أدبيا مشحونا بمختلف المضامين والدلالات التي يجسدها الكاتب بأسلوب فني يحقق جمالية على النص، ويخلف لذة لدى المتلقي، و تكمن أهداف الدراسة في إبراز الروافد الثقافية التي يكتنزها هذا النص الرحلي، ومدى مساهمتها في تبليغ المقاصد للمتلقي، ومن هذا المنطلق جاءت الإشكالية على النحو الآتي: ما مفهوم التناس ؟ وفيما تتمثل أشكاله ؟ وماذا نقصد بأدب الرحلة ؟ وماهي أهم التناصات التي تمظهرت في رحلة ابن جبير ؟ وكيف ساهمت في بلورة المعاني مع الحفاظ على خصوصية النص الرحلي ؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة اقتضت طبيعة الدراسة أن أعتمد على المنهج الوصفي التحليلي لاستجلاء مختلف أنواع التناصات التي تضمها النص الرحلي .

2- مفهوم التناس :

1-2 في النقد الغربي: يعد التناس من المصطلحات النقدية الحديثة التي شغلت اهتمام الكثير من النقاد واللسانيين، حيث بذل النقاد جهودا كبيرة لتحديد ماهيته، وإبراز وظيفته الجوهرية التي تخدم النص الأدبي، ومن النقاد الذين تطرقوا لهذا المصطلح نذكر الناقد "جيرار جنييت" الذي أشار إلى مفهوم التناس بقوله: "كل ما يجعل نصا يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر أو ضمني"¹، فالنصوص تربطها علاقات ببعضها البعض حسب المقاصد والدلالات التي يتضمنها النص، قد تكون خفية أو ظاهرة.

ومن النقاد الغربيين الذين كانت اشتغلوا على تقنية التناس نذكر الناقد "ميخائيل باختين" Mikhail bakhtine، حيث أشار في كتابه "فلسفة اللغة" أن اللغة الأدبية تقوم على أساس التعدد اللساني الذي يكون أساس الحوار، الذي هو سلسلة من الحوارات في المجتمع، وبفضل هذا الحوار يفهم موضوع الخطاب ... فالنصوص عنده تدخل في حوارات مع نصوص أخرى"²، وعلى هذا الأساس فالنصوص لا تقوم لها قائمة إلا دخلت في دائرة المحاوراة النصانية التي تثري النص وتمنحه ثقلا معرفيا وفنيا .

كما نجد الكاتبة الفرنسية "جوليا كريستيفا" Julia Kristiva من أوائل النقاد الذين سارعوا لوضع تنظير منهجي لمصطلح التناس، ويتجلى ذلك في قولها: "هو ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء معين تتقاطع ملفوظات عديدة متقاطعة من نصوص

أخرى"³. فالنص إذن فضاء تنصهر فيه مجموعة من النصوص بطريقة فنية معينة يستثمرها الكاتب حسب قدراته الفكرية والإبداعية.

2-2- في النقد العربي الحديث :

لاشك أن مصطلح التناص حظي باهتمام كبير من طرف النقاد العرب القدامى والمحدثين، غير أن تركيزنا سيكون حول النقاد المحدثين، واللافت للانتباه أن مصطلح التناص في الدراسات العربية المعاصرة، تعددت صياغته نظرا لتعدد زوايا النظر لدى النقاد، فالناقد "سعيد يقطين" من النقاد الذين استعملوا مصطلح "التفاعل النصي"، حيث يؤكد "أن النص ينتج ضمن بنية سابقة، فهو يتعالق بها ويتفاعل معها تحويلا أو تضمينا أو خرقا وبمختلف الأشكال التي تتم بها هذه التفاعلات"⁴، وعليه فإن أي نص أدبي يتفاعل مع غيره النصوص بطرق مختلفة.

كما نجد الناقد المغربي "محمد بنيس" تطرق هو الآخر إلى مصطلح التناص، حيث استخدم مصطلح التداخل النصي، ويعبر عن ذلك بقوله:

" فالنصوص شبكة فيها عدة نصوص، فلا يوجد نص خارج نص آخر، وهذه النصوص الأخرى اللانهائية هي ما نسميه بالنص الغائب"⁵

يتبين من خلال هذا القول أن النص الأصلي يتغذى على غيره من النصوص رغم اختلافها مشاربها، قصد تبليغ المعاني والرسائل التي يسعى المبدع لإيصالها إلى ذهن المتلقي.

3- مفهوم أدب الرحلة :

3-1- لغة: حظيت مادة "رحل" في المعاجم العربية بشرح مستفيض، فقد جاء في لسان العرب "الترحيل أو الرحال بمعنى الإشخاص أو الإزعاج يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا رحل"⁶.

ووردت الرحلة بمعنى السير يقال "أنه لذو رحلة إلى الملوك.. والرحلة بالكسر الارتحال للمسير"⁷.

يتضح لنا من خلال هذا التعريف اللغوي أن الرحلة تأخذ معنى الحركة والانتقال من مكان لآخر مع تحديد الوجهة، والمقصد الذي يسعى الرحالة لبلوغه.

3-2- اصطلاحا:

لاشك أن أدب الرحلة من الفنون الأدبية السردية التي تنوعت مفاهيمها لدى النقاد والباحثين، حيث يقول الباحث "عبد النبي ذاكر": "إنه شكل أدبي هجين يمتاز بتعدد أوجهه

وتمظهراته إلى حد أنه يمكن القول إنه جنس متكامل يحطم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماط خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات، الشيء الذي يعطي الانطباع بأنه مائع ومرن إلى حد كبير"⁸، وعليه فإن أدب الرحلة جنس أدبي يتسع ليشمل مختلف المضامين المعرفية والفنية، كما أنه يمتلك القابلية لاحتضان مختلف الأشكال التعبيرية الأخرى التي تساهم في إثراء مضامينه وتعميق دلالاته.

كما تجدر الإشارة إلى الناقد "عمر قينة" التي اهتم بهذا الفن السردي، حيث وصفه بقوله: "لون أدبي ذوا طابع قصصي يحمل فائدة للمؤرخ والباحث الجغرافي وعالم الاجتماع وغيرهم، وهي ضرب من السيرة الذاتية في مواجهة الظروف والأوضاع واكتشاف المعالم والأقطار ووصفها والحكم عليها..."⁹.

بناء على ما سبق ذكره يمكن القول أن أدب الرحلة من الفنون النثرية السردية التي يرصد من خلالها الرحالة كل ما وقعت عليه عينه من المشاهد والظواهر والعادات في البلدان التي نزل بها وعابن أحوالها واستقرأ أخبارها، معتمدا في ذلك على أسلوب سردي قصصي يتخلله الوصف الأدبي الذي تتفاوت درجته الأدبية من رحالة لآخر.

4- تمظهرات التناس في رحلة ابن جبير الأندلسي:

يتمظهر التناس داخل النسيج النصي وفق عدة أشكال وأنواع، وأبرز هذه التناسات الالافته للانتباه في النص الرحلي، ونجد من هذه الأنواع:

4-1- التناس الديني:

يشيد الناقد "صلاح فضل" بأهمية التناس الديني ومدى خدمته للنص الأدبي بقوله "توظيف النصوص الدينية يعد من أنجح الوسائل وذلك لخاصية جوهرية... وهي أنها مما ينزع الذهن لحفظه ومداومة تذكره"¹⁰. وبخاصة أن النص الديني يمتلك قدرة فائقة في التأثير على المتلقي، وإضفاء جمالية على النص.

4-1-1- التناس مع القرآن الكريم:

يجد المتمعن في النص الرحلي لابن جبير أن التناس القرآني حاضر بشكل كبير ويدل ذلك دلالة واضحة على تأثر الرحالة بالنص القرآني ومعانيه التي علقت في ذهنه، ويتجلى هذا التأثير العميق في مقام حضوره في الخطبة البليغة الغراء التي صدع بها الإمام الأوحـد "جمال الدين أبو الفضائل بن علي الجوزي" أين أعرب الرحالة عن دهشته وإعجابه بسحر

البيان ودرر الألفاظ التي أفرغها هذا الفقيه في أصداف الأسماع، فعبر عن هذا الموقف بقوله "أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون"¹¹.

ولا شك ان استحضار الرحالة لهذه الآية في هذا الموقف، يهدف من ورائه إبراز تأثيره الشديد بالبيان الرفيع واللغة البليغة التي كان لها وقع وتأثير كبير على النفس يشبه تأثير السحر، كما يتواصل حضور التناسع مع القرآن الكريم في ثنايا النص الرحلي وذلك في سياق وصفه لمدينة "حران" التي قال عنها "بلد لا حسن لديه، وقد اشتق من اسمه هواؤه فلا يألف البرد مأؤه، ولا تنال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجأؤه... قد نبذ بالعراء ووضع في وسط الصحراء"¹²، وهذا تناسع مع قوله تعالى "فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أنتداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم"¹³، وقد تناسع هذا التناسع القرآني مع موضوع وصف الرحالة لهذه البلدة التي تتقد بحرارة الشمس الحارقة التي تشمل جميع الأرجاء، وما يعانيه أهلها من صعوبة في العيش، لكونها وضعت في وسط الصحراء، ووجه الإبداع في هذا التناسع أن ابن جبير وفق في ربط صورة هذه المدينة بقصة سيدنا يونس عليه السلام، الذي ألقى في بطن الحوت، فكان في كرب شديد إلى أن أدركته رحمة الله عز وجل .

كما يتجلى تأثير الرحالة بالنص القرآني حين سافر من "عكا" فوصف حال البحر بقوله "...غشي البحر ضباب رقيق سكنت أمواجه، فعاد كأنه صرح ممرد من قوارير"¹⁴، وفي هذا القول تناسع مع قوله تعالى: "قل ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة فكتشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين"¹⁵.

وقد تناسع توظيف ابن جبير لهذه الآية الكريمة مع سياق وصفه لمشهد البحر الذي ساد السكون والهدوء، فاصبح يخيل لناظره أنه صرح ممرد من قوارير في حالة مماثلة للزجاج الذي مشى عليه ملكة سبأ "بلقيس" وحسبته لجة.

ولعله من الأفيد هنا أن نذكر أن ظاهرة التناسع مع القرآن الكريم حاضرة في النص الرحلي بشكل كبير، ولعل استحضار الرحالة للآيات القرآنية في رحلته يكشف عاطفته الدينية القوية التي يتمتع بها، فلا يكاد يفارقه هذا الحس في مختلف محطات الرحلة، مجسداً بذلك ظاهرة التناسع تلميحاً وتصريحاً.

4-1-2- التناسع مع الحديث النبوي:

لا يكاد يخفى على أحد أن توظيف الحديث النبوي في النص الأدبي يسهم في تقوية المنتج الفني وتقوية معانيه، نظرا لما يتمتع به من عذوبة في الألفاظ وجودة في السبك وقوة في المعاني، والمتمعن في رحلة ابن جبير يتملص حضور هذا الرافد الديني ومن النماذج الدالة على ذلك ما ذكره ابن جبير في وصفه لموكب الأمير العراقي القادم إلى مكة وما يرافقه من مراكب الإبل المخصصة للرجال والنساء، وقد وضعت على الإبل قباب تظلمهم بديعة المنظر، وتدل على سعة الأحوال وكثرة الأموال التي يملكها هذا الأمير العراقي، وفي هذا الصدد يقول ابن جبير "....وعليها أيضا ظلال تقي حر الشمس، ومن قصرت حاله عنها في هذه الأسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب"¹⁶.

في هذا المقطع إشارة واضحة إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: السفر قطعة من العذاب يمنع أحدهم طعامه وشرابه ونومه فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله"¹⁷، يدل هذا الحديث أن السفر جزء من العذاب لما يلقاه المسافر من التعب والمشقة، غير أن الرحالة استخدم هذا التناسخ ليصور لنا موكب الأمير العراقي، الذي لا يلحقه التعب والنصب في أسفاره، نظرا لما يتمتع به من الثراء والأبهة المملوكية التي مكنته من امتلاك الآلة والعدة، فلا يستشعر مشقة السفر وعذابه.

ومن مظاهر التناسخ مع الحديث النبوي ما ذكره ابن جبير في مقام وصفه بعض القبائل من اليمن التي تعرف ب"السرو"، حيث وصف حالهم في الصلاة فقال: "وَأَمَّا صَلَاتُهُمْ فَلَمْ يَذْكُرْ فِي مَضْحَكَاتِ الْأَعْرَابِ أَظْرَفَ مِنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَسْتَقْبِلُونَ الْبَيْتَ الْكَرِيمَ فَيَسْجُدُونَ دُونَ رُكُوعٍ وَيَنْقُرُونَ بِالسَّجُودِ نَقْرًا. وَيَلْتَفِتُونَ يَمِينًا وَشِمَالًا التَّفَاتِ الْمَرْوَعِ"¹⁸.

يتبين لنا من خلال هذا المقطع الوصفي أن الرحالة استحضر الحديث النبوي الذي نهى فيه النبي ﷺ عن الصلاة السريعة التي ينقرها صاحبها كنقر الديك "ففي المسند من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهاني رسول الله ﷺ عن ثلاث: عن نقرة كنقرة الديك، وإقعاء الكلب، والتفات كالتفات الثعلب"¹⁹، ولعل استحضار الرحالة لهذا التناسخ الديني فيه إشارة إلى رغبته لتصحيح هذا السلوك في الصلاة الذي يخل بالصلاة دون منحها الطمأنينة اللازمة في الركوع والسجود، فضلا عن ذلك فإننا نتلمس حضور العاطفة الدينية القوية لدى الرحالة.

ومن التناسخ الديني مع الحديث النبوي ما ذكره ابن جبير في سياق وصفه أهل اليمن وأحوالهم في موسم الحج، حيث أقر بأنهم أهل اعتقاد للإيمان صحيح، وقال: "وكفى بأن

دخلوا في عموم قوله ﷺ: "الإيمان يمان" ²⁰، والناظر في هذا الحديث النبوي يكشف الثقافة الدينية العميقة التي يتمتع بها الرحالة لاسيما في مجال الفقه والحديث، والجدير بالذكر أن حضور الحديث النبوي في تضاعيف الرحلة ساهم في إثراء مضامينها وفق أدلة وبراهين ساطعة تقوي آراء الرحالة من جهة، وتكشف عن تفاعله مع مختلف المشاهد والبوح بكل انطباعاته إزاء المواقف والعادات التي استرعت انتباهه في البلدان نزل بها وعاین أحوالها.

2-4- التناسل الأدبي:

يشكل التناسل الأدبي ركيزة أساسية في العمل الفني، حيث يتجسد من خلال "تداخل نصوص أدبية مختارة، فإن كان المأخوذ عنه شعرا فهو تناسل شعري، وإن كان نثرا يسعى تناسلا أدبيا، فالنصوص المتداخلة داخل النص الأصلي تكون منسجمة وموظفة ودالة قدر الإمكان على الفكرة التي يطرحها المؤلف أو الحالة التي يجسدها ويقدمها في نصه" ²¹، وعليه فإن استحضار الكاتب للنصوص الأدبية داخل نصه بطريقة ضمنية أو مباشرة له كبير الأثر في تأكيد المعاني، وتعميق الأفكار، ويكون النص الأدبي متميزا، حيث يتداخل هو الآخر مع نصوص أخرى، سواء كانت لكاتب نفسه، أي الكاتب الذي كتبه، أو أدباء آخرين يعيشون في زمن الكاتب متزامنين معه في العصر نفسه" ²². ومن أشكال التناسل الأدبي التي يشتمل عليها النص الرحلي لابن جبير الأندلسي نجد:

1-2-4- التناسل مع الشعر العربي:

مما لا ريب فيه أن حاجة الإنسان للشعر حاجة ضرورية لصيقة بالتكوين الإنساني، فضلا عن ذلك فالشعر وسيلة فنية ناجعة تتيح للمبدعين البوح بمختلف رغباتهم ومشاعرهم وانفعالاتهم في الوجود والواقع الذي يعيشون أحداثه ويتفاعلون مع معطياته، ومن يدمن النظر في رحلة ابن جبير ويتفحص تفاصيلها يقف على كم هائل من التناسلات مع الشعر العربي، ونلمس ذلك في ثنايا المتن الرحلي، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ورد في وصفه لمدينة بغداد وما تعرضت له من الخراب والدمار بعدما كانت جنة فوق الأرض، فقال: "وشأنها أعظم من أن يوصف، وأين هي مما كانت عليه..؟ لا أنت أنت ولا الديار ديار" ²³.

نلاحظ أن هذا الشطر من القول يتعالق نصيا مع قول الشاعر "حبيب بن أوس الطائي" في قوله:

لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار²⁴

يحمل البيت الشعري مسحة اغتراب جسدها الشاعر من خلال تعبيره عن ذاته التي لم تعد كما كانت من ذي قبل، وبخاصة أن موطنه الذي نشأ فيه لم يعد فيه من الحسن والجمال والهواء الذي يبعث على قضاء الأوطار، فقد تلاشت جميع التفاصيل الجميلة التي كانت تهز الوجدان وتثير الأشجان وتحرك مشاعر الهوى، ولقد تناسب هذا البيت الشعري مع المقام الذي استحضره في الرحالة مدينة "بغداد" مشيراً إلى الوضع الذي آلت إليه بعدما تكالب عليها الأعداء، وعاثوا فيها فساداً فحطموها كل جميل فيها فتغير حالها.

ينضاف إلى ذلك أن الرحالة يلجأ في كثير من الأحيان إلى توظيف الشعر في سياق حديثه عن الأمكنة وجمالها المؤثر في القلوب، ومن الشواهد الشعرية الدالة على ذلك ما ذكره عن مدينة "نصيبين" التي عبر عنها مضمناً وصفه بيتاً شعرياً لأبي نواس بقوله "فرحم الله أبا نواس الحين بن هانئ حيث يقول:

طابت نصيبين فطبت لها ياليت حظي من الدنيا نصيبين²⁵

ولعل تضمين الرحالة لهذا التناسخ الشعري في ثنايا وصفه لهذه المدينة يكشف تأثره الشديد بجمال المكان ورونقه، علاوة على ذلك فهو يوجي بسعة ثقافة الأدبية والإعتراف بالتراث الشعري القديم، ولا سيما حين يتعلق الأمر بشعراء العربية المشهورين أمثال أبي نواس.

ومن أمثلة التناسخ الشعري الذي يعبر عن عمق الثقافة الإسلامية التي يتمتع بها الرحالة؛ ما أشار إليه في وصف مكة المكرمة، حيث يقول: "هي بلدة قد وضعها الله عز وجل بين جبال محدقة بها...ولها ثلاثة أبواب أولها باب المعلى، ومنه يخرج إلى الجبانة المباركةوعن يسار المار إليها جبل في أعلاه ثنية...تعرف بكداء"²⁶.

والناظر في هذا المقطع الوصفي يستشف أن الرحالة أورد تناسخاً مع قول الشاعر "حسان بن ثابت"، حيث يقول:

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء²⁷

وقد أورد ابن جبير التناسخ الشعري في سياق انتقاله من بغداد إلى الموصل بصحبة الخاتونين؛ خاتون بنت مسعود وخاتون أم عز الدين صاحب الموصل فقال مصوراً هذا المشهد: "...وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائداه، والله

لا يجعلنا تحت قول القائل: "ضاع الرعيل ومن يقوده"²⁸، وهذا القول يتناص مع قول الشاعر:

جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده²⁹

وهذا البيت الشعري أطلق على فتى وضيء الوجه منهمك في الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللهو، وقد عينه الخليفة رئيس سرية جردها للحرب، وقد تناسب توظيف هذا التناص الشعري مع المقصد الذي سعى الرحالة للتعبير عنه، والمتمثل في خشيته من ضياع العسكر الذي يخضع لقيادة هاتين المرأتين المنعمتين في نعيم الملك والثراء الفاحش. ومن التناصات الشعرية التي تجدر الإشارة إليها؛ ما أومأ إليه ابن جبير في معرض وصفه مدينة "دنيسر" التي وصف سلاطينها فقال: "وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس، كلهم قد تحلى بحلية تنسب للدين، فلا تسمع إلا ألقابا هائلة وصفات لذي التحصيل غير طائلة..."³⁰.

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرحكي انتفاخا صولة الأسد³¹

والناظر في هذا البيت الشعري يجده يتناسب مع مقصد الرحالة الذي سعى من خلاله لإبراز صورة حكام هذه المدينة، حيث عمدوا إلى تغطية عجزهم وإظهار قوتهم، باللجوء إلى الألقاب الفخمة التي تحمل مسحة دينية بغية استمالة شعوبهم والتأثير فيهم.

2-2-4- التناسل مع الأمثال العربية:

تمثل الأمثال العربية رافدا من الروافد الثقافية التراثية التي تثرى الأعمال الأدبية، حيث تسهم في إضفاء جمالية على النصوص، وتعمق معانيها، كونها تمثل خلاصة تجربة حياتية.

بالرجوع إلى رحلة ابن جبير نتلمس ورود الأمثال العربية، لاسيما في تعبير الرحالة عن المشاهد التي يبصرها، والمواقف التي يتفاعل معها، ومن نماذج الأمثال التي تستوقف القارئ الرحلة قوله يصف مجلس الشيخ الفقيه "جمال الدين بن علي الجوزي" "فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، لآية الزمان، وقرة عين الأيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية"³².

وهذا القول مأخوذ من المثل العربي القائل: "كل الصيد في جوف الفرا، والفرا الحمار الوحشي"³³، ولعل المقصد من توظيف هذا المثل في المقطع الوصفي هو رغبة الرحالة في إبراز مكانة الخطيب وتفردته بالسبق في البلاغة والبيان والعلم الغزير، وتمكنه

من الغوص في بحر العلم وامتلاك نفائس البيان، ولما كان الفرا يفضل على جميع الصيد تناسب هذا المثل مع فكرة الرحالة، التي سعى من خلالها إلى تفضيل هذا الخطيب على أقرانه من الخطباء الذين أنصت لهم وحضر مجالسهم العلمية.

ومن نماذج الأمثال العربية التي وردت في تضاعيف المتن الرحلي، ما ذكره ابن جبير في مقام عقده مقارنة بين مجالس الفقيه الذي سبق ذكره وغيره من الوعاظ، الذين شهد مجالسهم، وفي هذا الصدد يقول: "...وشاهدنا بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بغداد... وكنا قد شاهدنا بمكة والمدينة شرفهما الله، مجالس من قد ذكرناه فصغرت بالإضافة لمجلس هذا الرجل الفذ، وأين تقعان مما أريدن وشتان بين اليزيديين"³⁴.

لاشك أن المتأمل في هذا المقطع الوصفي "شتان بين اليزيديين" يلحظ أنه ينطوي على مثل منتزع من البيت المشهور للشاعر ربعة الذي يقول فيه:

لشتان بين اليزيديين في الندى يزيد سليم والأغربن حاتم³⁵

يجد المتمعن في هذا البيت أن الشاعر يعقد مقارنة بين رجلين في مجال الكرم والسخاء، حيث يمدح أحدهما ويذم الآخر، باستخدام اسم الفعل الماضي "شتان" الذي يحمل معنى الافتراق ليعبر عن البعد الشاسع بينهما في التحلي بهذه القيمة الخلقية، وقد تلاءم استحضار هذا البيت الشعري مع مقصد الرحالة الذي عبر فيه عن العلم الغزير، والبيان الرفيع، الذي يتمتع به الشيخ الفقيه "جمال الدين بن علي الجوزي"، والذي حاز السبق في ميدان الفقه والبلاغة والبيان، مقارنة بعلماء بغداد الذين حضر مجالسهم الوعظية، فلاحظ أنهم لم يبلغوا مبلغ هذا الشيخ من العلم والفقه.

وقد أورد ابن جبير بعض الأمثال العربية الشائعة على ألسنة العامة من الناس، حيث ذكر ذلك في مقام وصفه أهل "عذاب" في معاملتهم للحجاج المثل السائد عندهم "علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح"³⁶، وهذا المثل شائع وذائع بينهم، إذ يوحي بالظلم ويعكس المعاملة القاسية التي يتعرض لها الحجاج على مستوى الموانئ يفرضون سلطاتهم عليهم ولا هم لهم سوى تحقيق الربح المادي، وقد أحسن استخدامها في مختلف المواقف والمشاهد لإثباتها وتوكيد حقيقتها.

3-4- التناسخ التاريخي:

تشكل المادة التاريخية رافدا من الروافد المعرفية التي تثري عملية الكتابة الإبداعية وتعمق بعدها الدلالي، ويقصد بالتناسخ التاريخي "تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الأصلي لتأدية دلالة فكرية"³⁷.

وترتبط المادة التاريخية عموما بالأمكنة والوقائع والشخصيات والأحداث، والمتصفح لرحلة ابن جبير يتلمس تأثيره الواضح بتاريخ المجتمع الإسلامي ومعالمه على وجه الخصوص، لاسيما من خلال تشخيصه لواقع المشرق العربي في القرن الثاني عشر الذي تزامن مع فترة الحروب الصليبية التي اجتاحت بلاد المشرق، ومن التناصحات التاريخية التي عبر من خلالها الرحالة عن التواجد الصليبي ما ذكره عن بلاد الشام بقوله: "وليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام، والشام أكثره بيد الإفرنج"³⁸.

يوجي لنا هذا المقطع أن الرحالة أراد أن يصور لنا الوضع الذي آلت إليه بلاد الشام حين وقعت في قبضة الصليبيين.

كما يحمل النص الرحلي بين جنباته إشارة إلى بعض المدن والأماكن التاريخية، ومن الشواهد الدالة على ذلك ما ذكره عن مدينة "صقلية" التي احتلها الصليبيون واستولوا عليها وفي هذا الشأن يقول: "وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس في سعى العمارة وكثرة الخصب والرفاهة.... لكنها معمورة بعبدة الصلبان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها..³⁹"، نلمح من خلال هذا القول أن ابن جبير يبدي تأسفه وحسرتة على ضياع هذه المدينة الإسلامية واستيلاء الصليبيين عليها، والتصرف في خيراتها، متمنيا عودتها للمسلمين.

والجدير بالذكر أيضا أننا لانعدم ورود بعض الشخصيات التاريخية في نص الرحلة، حيث نالت نصيبا كبيرا من الاهتمام نظرا للأعمال الجليلة التي قدمتها في هذه الفترة التاريخية الحرجة التي عاشها المشرق الإسلامي على وجه الخصوص، كشخصية صلاح الدين الأيوبي الذي قال عنه ابن جبير "ومن مفاخر هذا السلطان المقربة من الله تعالى وأثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا إزالته رسم المكس المضروب وظيفه على الحجاج..⁴⁰"، والمتتبع لرحلة ابن جبير يجد أن التناسخ التاريخي يصعب حصره، إذ إنه يغطي مساحة كبيرة في النص الرحلي موزعة حسب المواقف والأحداث، وكذلك تاريخ المدن التي نزل بها ووقف على معالمها.

5- خاتمة:

يمكن القول أن رحلة ابن جبير اشتملت على مختلف أشكال التناسل " الديني، والأدبي، التاريخي"، حيث استطاع الرحالة أن يستثمر مختلف هذه الروافد لإثراء نصه الرحلي، والتعبير عن مختلف المقاصد والغايات التي يرمي عليها، كما أن استلهامه للموروث الديني والأدبي يكشف عن مدى تشبعه بالثقافة الدينية واعتزازه بالهوية العربية، كما أن توظيف الرحالة لهذه التناسلات كان له كبير الأثر في إضفاء جمالية على النص الرحلي، ولا أدعي أنني أحطت بجميع التعالقات التناسلية في الرحلة، فرحلة ابن جبير فضاء نصي شاسع يزخر بمكونات فنية يصعب حصرها، لذلك فهي مازالت بحاجة إلى عناية الباحثين لكشفها والوقوف عليها بالدراسة والتحليل.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1- محمد عزام، النص الغائب تجليات التناسل في الشعر العربي، دراسة في منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص 14.
- 2- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2008، ص 27.
- 3- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريدة الزاهي، مراجعة عبد الحليم ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت، ص 22.
- 4- عبد الحليم علوي إسماعيل، الخطاب النقدي عند رولان بارت، موت المؤلف، مجلة مغرس، نشرت في أخبار الجنوب، 14-16-2012، ص 01.
- 5- محمد بنيس، حادثة السؤال بخصوص الحداثة العربية في الشعر والثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985، ص 85.
- 6- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، 1994، ج 11، ص 276.
- 7- الزبيدي، تاج العروس، المحقق مجموعة من المحققين، دار الهداية، الرياض، د.ط، 2010، ص 61.
- 8- ناصر عبد الرزاق المواقي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1995، ص 49.
- 9- عمر قينة، في الأدب الجزائري الحديث، تأريخاً وأنواعاً وقضايا وأنواعاً، ديوان المطبوعات الجزائرية، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 1995، ص 07.
- 10- صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، قراءة في الشعر والقصة والمسرح، هيئة القصور الثقافية، القاهرة، ط1، مصرن ط1، 1993، ص 43.

- 11- سورة الطور الآية 15.
- 12- ابن جبير محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت، ص 219.
- 13- سورة القلم ، الآيتان 48 و49.
- 14- رحلة ابن جبير ، ص 286.
- 15- سورة النمل الآية 44.
- 16- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 155.
- 17- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم الجعفي، صحيح البخاري، جمعية البشري الخيرية للخدمات الإنسانية والتعليمية، د.ط، 2016، مج 16، ص 908.
- 18- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 112.
- 19- حمود بن عبد الله التويجري، غربة الإسلام، تح: عبد الكريم حمود، دار الصمعي للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، 2010، ص 667.
- 20- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 112.
- 21- أحمد الزعبي، التناص نظريا وتطبيقيا، مكتبة الكتاني، إربد، ط 1، 1995، ص 13.
- 22- ينظر، محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 2، 1989، ص 282.
- 23- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 205.
- 24- أبو تمام ، ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة ، ط 4، د.ت، مج 04، ص 166.
- 25- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 214.
- 26- المصدر نفسه، ص 87.
- 27- حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 2، 1994، ص 19.
- 28- رحلة ابن جبير، ص 206.
- 29- ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحساس عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط 4، 1996، مج 05، ص 318.
- 30- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 216.
- 31- ابن رشيق القيرواني، الديوان، تح: عبد الرحمن باغي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 1، 1989، ص 48.
- 32- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص 196.

- 33- النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تح، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، د.ط، د.ت، ج2، ص 136.
- 34- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص200.
- 35- ابن قانيماز الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، زاده - 35 فواند واعتنى به : حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، د، ط، 2004، ج03، ص 4220.
- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص48.
- 37- أحمد الزعبي، التناس نظريا وتطبيقيا، ص25.
- 38- ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص270.
- 39- المصدر نفسه، ص297.
- 40- المصدر نفسه، ص30.
- 7- قائمة المصادر والمراجع:
- (1) القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- (2) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم الجعفي، صحيح البخاري، جمعية البشري الخيرية للخدمات الإنسانية والتعليمية، د.ط، 2016.
- (3) أحمد الزعبي، التناس نظريا وتطبيقيا، مكتبة الكتاني، إربد، ط1، 1995.
- (4) أبو تمام، ديوان أبي تمام شرح الخطيب التبريزي تح: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.
- (5) ابن جبير محمد بن أحمد، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، د.ت.
- (6) جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريدة الزاهي، مراجعة عبد الحليم ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، د.ت.
- (7) حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994.
- (8) ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن علي، التذكرة الحمدونية، تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط4، 1996.
- (9) حمود بن عبد الله التويجري، غربة الإسلام، تح: عبد الكريم حمود، دار الصميعة للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2010.
- (10) ابن رشيقي القيرواني، الديوان، تح: عبد الرحمن باغي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1989.
- (11) الزبيدي، تاج العروس، المحقق مجموعة من المحققين، دار الهداية، الرياض، د.ط، 2010.
- (12) صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، قراءة في الشعر والقصة والمسرح، هيئة القصور الثقافية، القاهرة، ط1، مصرن ط1، 1993.

- 13) عبد الحليم علوي إسماعيل، الخطاب النقدي عند رولان بارت، موت المؤلف ، مجلة مغرس، نشرت في أخبار الجنوب، 14-16-2012.
- 14) ابن قانيماز الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، زاده - 40 فوائد واعتنى به : حسان عبد المنان، بيت الأفكار الدولية، لبنان، د، ط، 2004.
- 15) عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2008.
- 16) عمر قينة ، في الأدب الجزائري الحديث، تأريخا وأنواعا وقضايا وأنواعا، ديوان المطبوعات الجزائرية، بن عكنون، الجزائر، د.ط، 1995.
- 17) محمد بنيس، حادثة السؤال بخصوص الحادثة العربية في الشعر والثقافة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1985.
- 18) محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1989.
- 19) محمد عزام، النص الغائب تجليات التناس في الشعر العربي، دراسة في منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 2001.
- 20) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ط، 1994.
- 21) ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1995.
- 22) النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تج، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، د.ط، د.ت.